آفي شيلون (*)

# الهوية الإسرائيلية - اليهودية المتجددة: عن الدين، الليكود، التصحيحية، المسيانية ونفتالي بينيت!

وضع شتاء العام ٢٠١٥ مشاهد قنوات التلفزة الإسرائيلية أمام «سيل عارم» من السياسيين الذين يتجادلون فيما بينهم حول مواضيع شتى، وفي مقدمها مسألة النزاع الصهيوني- العربي. وكما هو مألوف في مثل هذه الظروف، فإن السياسيين الإسرائيليين لا يفوتون في فترة الانتخابات أي فرصة للمواجهة والصراخ وتوجيه الاتهامات المتبادلة والنقاشات الصاخبة. انتقل بعضهم إلى أحزاب أخرى، وأقام بعضهم الآخر أطرا حزبية جديدة وحل أطرا قديمة، وهكذا يخيل أن الديمقراطية الإسرائيلية أضحت مفعمة بالنشاط والحيوية.

في ظل كل هذه الجلبة والصخب، من السهل على المشاهد تجاهل حقيقة أساس: على الرغم من الانقلابات السياسية وتبدل الزعماء، إلا أن الوضع بين إسرائيل والفلسطينيين لا يتغير منذ عقود. أحد الأسباب التي تقف خلف ذلك، والذي ينبثق عنه التقدير بأن هذا الوضع سيبقى قائما على حاله في المستقبل المنظور أيضا، يتمثل في حقيقة أنه لا توجد من ناحية سياسية - مبدئية، رغم الجدل والتباينات في الموقف تجاه النزاع، فجوة حاسمة بين الأحزاب الممتدة من «ميرتس» وحتى التيار المعتدل في «الليكود». فجميع هذه الأحزاب تؤيد قيام دولة فلسطينية انطلاقا من تبنيها لفكرة الفصل كصيغة للتعايش، غير أن التناقض الجلي الكامن في هذه العبارة ما زال غائبا عن أنظار الخطاب العام. وقد وصل اللامعقول ذروته عندما تبنى اليسار الصهيوني بحماس شعار «نحن هنا وهم هناك» الذي صكه في سبعينيات القرن الماضي رحبعام زئيفي، الذي تزعم حزبا أيد الترانسفير. وعليه فإن الفارق بين أحزاب الليكود

(*) صحافي وأكاديمي إسرائيلي.

"الليكود الجديد".. أين الجديد؟

والعمل وميرتس، ليس جوهريا إذاً. صحيح أن نتنياهو يحاول إرجاء النهاية، وأن زهافا غالئون (زعيمة حزب ميرتس) مستعدة لتنازلات كبيرة بشكل فوري، فيما يشجع اسحق هرتسوغ وتسيبي ليفني إجراء مفاوضات مكثفة .. غير أن أحدا لا يخاطر بالإعلان عن القبول بتسوية في «جبل الهيكل « (الحرم القدسي)، والتي لن يقوم أي سلام دونها، فجميع هؤلاء مخلصون لفكرة دولة يهودية وديمقراطية عاصمتها القدس. على الجانب الآخر فإن أحزاب اليمين أيضا غير مستعدة للتلويح بإقامة نظام أبارتهايد أو اقتراح صيغة ثنائية القومية، وهي تسعى وتريد فعليا الإبقاء على الوضع القائم. وهكذا فإن الخلافات السياسية في إسرائيل قائمة إذا على السطح، بينما يسود تحته توافق ينتج جموداً سياسيا.

إن الإجماع العميق الذي يصوغ التوافق السياسي بشكل خفي، ويجعل بذلك الصهيونية عاجزة ومكبلة في محاولتها الاندماج في الحيز الشرق أوسطي، يتجلى في النظرة السلبية المشتركة لمصطلح «المسيانية». وقد دأب يائير لبيد، الذي ألهب حماس المجتمع الإسرائيلي في الانتخابات السابقة (٢٠١٣) بدعوته إلى «حياة كريمة وطبيعية»، على اتهام أنصار «أرض إسرائيل الكبرى» بالمسيانية. وحين سعى رئيس جهاز «الشاباك» الأسبق، يوفال ديسكين، إلى وصف معارضته لميل بنيامين نتنياهو وأيهود باراك نحو مهاجمة المنشآت النووية في إيران تحدث عن «زعامة مسيانية». إلى ذلك فإن هذا الوصف (المصطلح) يستخدم أيضا، بالمعنى الانتقادي (السلبي) من قبل الطرف الآخر للمتراس السياسي، إذ يصف أعضاء معسكر اليمين سعي اليسار الصهيوني إلى سلام يقوم على حل دولتين لشعبين، بأنه سعي مسياني!

ولكن يبدو أن النظرة السلبية لـ«المسيانية» ليست فقط عارضا يدل على إسفاف فكري جماعي، وإنما على مرض أصاب الصهيونية المعاصرة. فالمسيانية في معناها العلماني الأصلي، كانت أيضا البعد الذي استهدف تمكين الصهيونية من التخلص من المصاعب والإشكاليات الأخلاقية التي وسمت سلوكها وممارستها، سواء في صوغها لمواقفها تجاه المسألة العربية، أو في سياقات داخلية. ومن ناحية عملية، فقد كانت للمسيانية في نظر كثيرين من المفكرين الصهيونيين، قيمة إيجابية، تصحيحية، خلت من دلالات الفكرة القوموية أو الأصولية التي أضحت مشحونة بها في العصر الحالي. لقد سعت المسيانية التي وسمت الصهيونية الأصلية، إلى تحقيق فكرة نبيلة، تسمو على شؤون الحياة اليومية، لصالح البشرية في بعد عالمي.

إن المسيانية هي مفهوم يهودي في الأصل، بيد أن المسيانية

**صحيح أن الوسائل اليوتوبية التي استهدفت بناء مجتمع عادل، ومن ضمنها الاستيطان العامل، تحولت بمرور الزمن إلى وسائل في الصراع القومي، وسط التخلي عن مضمونها الأخلاقي والعالمي، غير أن زعماء ومفكري الصهيونية تباهوا، من ناحية فكرية، بتطلعهم إلى صيغة مسيانية علمانية، ذلك لأنهم أدركوا جيدا بأن الصهيونية لن تكون بدون الرؤيا أو الفكرة المسيانية، سوى مجرد حركة قومية، تسببت ظروف اقامتها - حتى وإن أمكن تبريرها بحكم ظروف حياة الشعب اليهودي في الشتات- بظلم لحركة قومية أخرى.**

الصهيونية مضت قدما، إلى حدّ بعيد، في طريق التقاليد الطوباوية المثالية لزعماء حركات قومية من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أمثال هاردر الألماني، وماتشيني الإيطالي، وميتسكيبتس البولند وماسريك التشيكي. وقد سعت هذه الحركات القومية، بتأثير عصر التنور، إلى اليوتوبيا انطلاقا من إيمانها بفكرة التقدم الحتمية من الناحية التاريخية، والتي تهدف وفق وجهة النظر العصرية التقليدية، إلى التقدم بخط مستقيم نحو مستقبل أفضل. وقد استلهم هرتسل وبن غوريون على حدّ سواء من هذا التوجه الفكري، وقاما بمواءمته ليتسق مع التقاليد اليهودية. صحيح أن الموقف العلماني- المسياني أعتبر في الحقيقة كحلقة وصل بين التاريخ اليهودي، بمكوناته الدينية، وبين الفكرة القومية الحديثة، إلا أنه استهدف إكساب الصهيونية قيمتها الإضافية: تقديم الدولة اليهودية لتكون أيضا طليعة في خدمة البشرية، تقود التاريخ نحو عصر الخلاص والانعتاق. وبذلك فقد شكل المكون الديني - الثيولوجي في المسيانية، ليس فقط تعبيرا لتجسيد عودة الشعب اليهودي إلى موطنه، وإنما أيضا كيوتوبيا، ليبرالية أو اشتراكية، تقوم على مبادئ المساواة والعدل العالمية. وقد رأت هذه الطوبائية في الصهيونية طابعا عمليا أيضا، تجلى، بوحي من حركة العمل، في الاستيطان التعاوني (التشاركي)، وفي الاقتراحات التي طرحت مراراً، حتى ثلاثينيات القرن الماضي، لإقامة فدرالية يهودية -عربية، وتعاون طبقي بين الفلاحين (العرب) والعمال اليهود. صحيح أن الوسائل اليوتوبية التي استهدفت بناء مجتمع عادل، ومن ضمنها الاستيطان العامل، تحولت بمرور الزمن إلى وسائل في الصراع القومي، وسط التخلي عن مضمونها الأخلاقي والعالمي، غير أن زعماء ومفكري الصهيونية تباهوا، من ناحية فكرية، بتطلعهم إلى صيغة مسيانية علمانية، ذلك لأنهم أدركوا جيدا بأن الصهيونية لن تكون بدون الرؤيا أو الفكرة المسيانية، سوى مجرد حركة قومية، تسببت ظروف اقامتها - حتى وإن أمكن تبريرها بحكم ظروف حياة الشعب اليهودي في الشتات- بظلم لحركة قومية أخرى.

شهد مفهوم المسيانية نقطة تحول حاسمة في أعقاب حرب «الأيام الستة»، حرب حزيران ١٩٦٧. ولكن خلافا للقراءة المألوفة لنتائج هذه الحرب، سواء في الأدبيات البحثية أو في الخطاب العام الإسرائيلي، والتي كشفت وساهمت في تعظيم البعد المسياني في إسرائيل، فقد أدى احتلال المناطق (التي اعتبرت جزءا من أرض إسرائيل التوراتية) من ناحية عملية، إلى نتيجة معاكسة، إذ تحولت المسيانية إلى مفهوم إقليمي (جيوسياسي) قومي يخص محافل دينية- قومية متطرفة.

ونظراً لأن المسيانية نسبت منذ ذلك الوقت إلى التيار الديني - القومي الاستيطاني، فقد تحول هذا التعبير أو المصطلح إلى مذمة لدى الشرائح الليبرالية، وسط إفراغه من مضمونه العلماني - الصهيوني، دون طرح بديل.

ظاهريا، كان يمكن الاعتقاد بأن اختفاء المسيانية سيؤدي إلى تعاظم الرغبة والتطلع إلى حياة طبيعية. غير أن وضع إسرائيل، بحكم ظروف نشأتها ووجودها، ليس طبيعيا في كل ما يتعلق بنسيج علاقاتها مع جاراتها ومع الفلسطينيين، وبالتالي لا بد للحلّ أيضا أن ينبع من أعماق الوعي أو من قمم العاطفة. إن خلو الأيديولوجيا الصهيونية الراهنة من البعد المسياني يجعل المجتمع الإسرائيلي غير قادر على خوض نقاش يسمو على السياسة والمصالح الضيقة، وهو أمر له ثمن. فلو كان اليمين الإسرائيلي مسيانيا، لكان يتطلع نحو أرض إسرائيل الكبرى، ويقترح في الوقت ذاته على الفلسطينيين التمتع بالمواطنة في هذه

**ظاهريا، كان يمكن الاعتقاد بأن اختفاء المسيانية سيؤدي إلى تعاظم الرغبة والتطلع إلى حياة طبيعية. غير أن وضع إسرائيل، بحكم ظروف نشأتها ووجودها، ليس طبيعيا في كل ما يتعلق بنسيج علاقاتها مع جاراتها ومع الفلسطينيين، وبالتالي لا بد للحلّ أيضا أن ينبع من أعماق الوعي أو من قمم العاطفة. إن خلو الأيديولوجيا الصهيونية الراهنة من البعد المسياني يجعل المجتمع الإسرائيلي غير قادر على خوض نقاش يسمو على السياسة والمصالح الضيقة، وهو أمر له ثمن. فلو كان اليمين الإسرائيلي مسيانيا، لكان يتطلع نحو أرض إسرائيل الكبرى، ويقترح في الوقت ذاته على الفلسطينيين التمتع بالمواطنة في هذه الدولة الكبيرة.**

الدولة الكبيرة. ولو كان اليسار مسيانيا لما كان يناوئ اشتراكية شيلي يحموفيتش، ولما كان تخلى عن الاحتجاج الاجتماعي الذي اندلع في صيف العام ٢٠١١، لصالح حلول سحرية برجوازية من النوع الذي اقترحته أحزاب مثل حزب يائير لبيد.

لا وجود لمسيانية في إسرائيل، والذين يتهمون بالمسيانية ليسوا كذلك في الحقيقة. كذلك فإن الذين يدعون إلى مهاجمة منشآت إيران النووية، لا يفعلون ذلك بدوافع مسيانية، وإنما يعتقدون أن ذلك يخدم مصلحة إسرائيل في ميزان القوى الإستراتيجي في الشرق الأوسط. معظم اليساريين المؤيدين للسلام وإحياء عملية أوسلو وحل الدولتين، ليسوا مسيانيين، فهم لا يريدون رؤية العرب من حولهم، ويؤمنون أن الانفصال عن الفلسطينيين هو الصيغة الوحيدة لإخماد جذوة النزاع. كذلك فإن معظم اليمينيين ليسوا مسيانيين في نظرتهم لمغزى أرض إسرائيل، فهم يخشون التوصل إلى اتفاق سلام بسبب اعتبارات الأمن، ولأنهم لا يثقون بالعرب.

* * *

حبذا لو تعود المسيانية إلى الخطاب العام في إسرائيل. اعتاد رئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو على تقديم نفسه كوريث لمناحيم بيغن ( أول رئيس وزراء من حزب الليكود)، الذي نجح في إحداث انقلاب سياسي والإطاحة بحكم حركة العمل الصهيونية الذي دام قرابة أربعة عقود، وكذلك كمكمل ووريث فكري لزئيف جابوتنسكي، مؤسس الحركة التصحيحية في الصهيونية.

غير أن نتنياهو، سواء من ناحية وجهة نظره أو من ناحية نمط زعامته، يمثل القطب المعاكس لكليهما. فهما (جابوتنسكي وبيغن)، كزعيمين، أقرب إلى النموذج المشكل والملهم الذي يسعى إلى تربية وتثقيف الشعب في ضوء الأيديولوجيا التي يقترحها هو ذاته، في حين أن نتنياهو زعيم من طراز شاذ، فهو يسعى إلى إدارة الدولة كمدير عام، وتوجيه دفة السفينة نحو الهدف المتوقع دون أي تفكير عميق، وهو بذلك مكمل لطريق اسحق شامير بالذات.

غير أن الفارق الرئيسي بين نتنياهو وبيغن وجابوتنسكي يكمن في وجهات نظرهم ومنطلقاتهم. فتفكير جابوتنسكي كان يتسم بالسعة والشمول، وكانت الصهيونية بالنسبة له، تعني من ضمن أشياء أخرى، ثورة ثقافية في حياة الشعب، ومن هنا سعى إلى خلق يهودي جديد يستجيب لقواعد الرقي والتميز والسمو التي اقترحها. وقد تطلع أيضا إلى استلهام مجموعة من القيم الاشتراكية، وليس القومية فقط، من اليهودية، وتجسيدها في نطاق الصهيونية. كذلك فقد اتسم تفكير بيغن أيضا بالتنوع وتعدد الوجوه، وقد انصب جل نشاطه، من نواح كثيرة، على تشويش وعرقلة مساعي بن غوريون الرامية إلى محو ثقافة اليهودية الدينية (الحاخامية) حيث سعى عوضا عن ذلك، إلى إعادة توثيق العلاقة بين الدين والقومية والدولة.

في المقابل، تخلى نتنياهو كليا عن الاهتمام بالقيم اليهودية ومغزاها في السياق الإسرائيلي. ولأنه يرى في الدين اليهودي تجسيداً فوضويا للبعد القومي، فقد كانت الصهيونية، من وجهة نظره، الوريث المطلق لليهودية معتبرا أن تجسيدها (أي الصهيونية) يتمثل في شكل حصري تقريبا، في المحافظة على السيادة في أرض إسرائيل. وفي هذا السياق، فإن قراءة كتاب نتنياهو «مكان تحت الشمس»، توفر إطلالة على فهمه. فالصهيونية، كما يقول، هي «إثم مرادف لليهودية... وهي تسمية

**من هنا فإن قومية نتنياهو بسيطة إذن، فهي مرتبطة بالوجود السيادي للشعب في بقعة الأرض الوطنية، وتخلو في الوقت ذاته من أية قيم أخرى. وبغية الاستمرار في ممارسة السيادة اليهودية العصرية، يعمل نتنياهو انطلاقا من رؤية تتسم بتشاؤم عميق. ولكي نفهم هذا البعد التشاؤمي لدى نتنياهو، يجدر بنا الرجوع إلى مقال مؤسس كتبه جابوتنسكي في بدايات تبلور فكرة، في العام ١٩١٠، تحت عنوان «الإنسان للإنسان ذئب». وقد كتب جابوتنسكي في مقاله المستمد من وجهة نظر (الفيلسوف الإنجليزي) توماس هوبز حول صراع البقاء الإنساني في الوضع الطبيعي: «أحمق هو الإنسان الذي يثق بجاره، مهما كان هذا الجار طيبا وودوداً».**

مرادفة لتطلع الشعب اليهودي نحو العيش في بلده ويمكن القول بصورة عامة، بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من التاريخ اليهودي، أن اليهود الذي واصلوا فقط الحنين إلى القدس، ظلوا يهوداً. فبدون هذه الرابطة العضوية بصهيون (أرض إسرائيل)، تفقد اليهودية هويتها، وتندثر في نهاية المطاف».

وتشير هذه الأقوال بوضوح إلى أن جوهر اليهودية يتسم بالبساطة والابتذال، فهو وفقا لنتنياهو يكمن في الصراع على أرض إسرائيل، فضلا عن ذلك فإن اليهودية، حسب تقديره سوف تندثر وتختفي من الوجود في غياب الرابطة بالوطن. والجدير بالملاحظة أيضا أن نتنياهو اعتاد التأكيد، سواء في كتابة أو في خطبه، على «ثلاثة آلاف عام من التاريخ اليهودي»، في حين أن معظم الزعماء الصهيونيين العلمانيين يتحدثون عن ألفي (٢٠٠٠) عام من «الحنين إلى صهيون»، أي أنهم يؤكدون على أن الصهيونية شكلت خاتمة ونهاية لحقبة المنفى، بشتى ظواهرها الدينية، وأن جوهرها يكمن في «العودة إلى أرض إسرائيل». في المقابل اعتاد أتباع التيار الصهيوني الديني التحدث عن أربعة آلاف عام لوجود الشعب اليهودي أي منذ عهد إبراهيم والقيم التوراتية الأساسية. ولكن نتنياهو يتحدث عن ثلاثة آلاف عام، لماذا؟! لعل ذلك مصدره كون نتنياهو يعتبر أن التاريخ اليهودي يبدأ فقط منذ عهد مملكة داود وسليمان، مما يعني، حسب وجهة نظره، أن المبدأ الرسمي- السيادي هو المؤسس لوجود الشعب اليهودي.

من هنا فإن قومية نتنياهو بسيطة إذن، فهي مرتبطة بالوجود السيادي للشعب في بقعة الأرض الوطنية، وتخلو في الوقت ذاته من أية قيم أخرى. وبغية الاستمرار في ممارسة السيادة اليهودية العصرية، يعمل نتنياهو انطلاقا من رؤية تتسم بتشاؤم عميق. ولكي نفهم هذا البعد التشاؤمي لدى نتنياهو، يجدر بنا الرجوع إلى مقال مؤسس كتبه جابوتنسكي في بدايات تبلور فكرة، في العام ١٩١٠، تحت عنوان «الإنسان للإنسان ذئب». وقد كتب جابوتنسكي في مقاله المستمد من وجهة نظر (الفيلسوف الإنجليزي) توماس هوبز حول صراع البقاء الإنساني في الوضع الطبيعي: «أحمق هو الإنسان الذي يثق بجاره، مهما كان هذا الجار طيبا وودوداً».

ويشمل الحل الذي يقترحه مؤسس الحركة التصحيحية: «الانعزال وعدم الثقة والحذر والاحتراس والإمساك بالعصا طوال الوقت» وذلك من أجل «الصمود في مقارعة الذئاب».

هكذا نظر جابوتنسكي إلى جوهر الحياة والوجود: مقارعة وصراع مستمران من أجل الحق في الوجود والعيش بكرامة. ولقد كان نتنياهو، ومازال، مخلصا لهذه الرؤية، ودون الانزلاق إلى علم النفس، يبدو أن سيرة حياته العائلية- عاش صباه في ظل أب قوي ومؤثر شعر بأن المؤسسة الأكاديمية والسياسية ترفضه ولا تعترف بقيمته، وشبابه في ظل شقيقه الأكبر يوني، الذي قتل أثناء قيادته لعملية (مطار) عنتيبا في العام ١٩٧٦- ساهمت في اتشاح وجهة نظره ورؤيته بالسواد والتشاؤم. ولعل طريقة إدارة نتنياهو للعملية العسكرية الأخيرة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة (عملية «الجرف الصامد»)، قد حيكت بشكل يتسق تماما مع رؤيته هذه. فقد تجلى البعد التشاؤمي بوضوح في الهدف الرئيسي للعملية، والذي ظل نتنياهو مصرا عليه طوال قرابة خمسين يوما: تحقيق تسوية تستند على الردع بالقوة، وتؤدي إلى إحلال الهدوء على الحدود الجنوبية لإسرائيل لفترة طويلة قدر الإمكان.

**لقد نجح نتنياهو في قيادة إسرائيل طوال السنوات الست الأخيرة، وفي الفوز بتأييد غالبية الناخبين، نظراً لأن تشاؤمه السياسي برهن على صحته ظاهريا. فغالبية الإسرائيليين تكن له التقدير والاحترام إزاء كون إسرائيل مازالت جزيرة من الاستقرار في شرق أوسط عاصف ومضطرب. ولكن الاستقرار الذي يقترحه نتنياهو في الحاضر سيكون له ثمن في المستقبل الذي يتحاشى (نتنياهو) النظر إليه بجرأة وشجاعة، مسلحا برؤية تنطوي على مخاطر ، لكنها تنطوي أيضا على فرص.**

لم يكن نتنياهو مقتنعا بالاقتراحات التي طرحت في المجلس الوزاري الإسرائيلي المصغر، بمواصلة العملية العسكرية، حتى الإطاحة بسلطة حركة «حماس» على أمل إحلال بديل سلطوي مريح أكثر، كما أنه لم يكن مقتنعا، من جهة أخرى، بقدرة الإسرائيليين على تحمل خسائر كبيرة في صفوف الجيش الإسرائيلي، إذا ما جرى تصعيد العملية العسكرية وتعميقها في قطاع غزة، فضلا عن أنه لم يكن بطبيعة الحال يثق بـ «أبي مازن» كشريك، وإنما بمناورات سياسية مفاجئة، تشمل على سبيل المثال خطوات حسن نية تجاه «حماس» ورفع الحصار، بغية التوصل إلى «هدنة» طويلة الأمد، على الأقل. وببساطة فإن نتنياهو لم يؤمن بأي خيار يمكن أن يفضي إلى تغيير الوضع نحو الأفضل. فمن ناحيته، كانت العملية العسكرية منبثقة من رؤية جابوتنسكي المتشائمة حول الحياة، والعبرة التي تسم فهمه للتاريخ اليهودي. فتحليل نتنياهو للتاريخ اليهودي يحيل بالأساس، وفق رؤيته، إلى مجموعة خيارات مخيفة، ينبغي المناورة بينها من أجل تحقيق الأقل سوءا. فـ «التقلبات في الشرق الأوسط»، وفق وصفه المتكرر لما يحدث في المنطقة منذ اندلاع ما يسمى بـ «ثورات الربيع العربي»، إنما تؤكد فقط قناعته بأن أي خطوة بعيدة الأثر ستكون محفوفة بمخاطر لا داعي لها.

لقد نجح نتنياهو في قيادة إسرائيل طوال السنوات الست الأخيرة، وفي الفوز بتأييد غالبية الناخبين، نظراً لأن تشاؤمه السياسي برهن على صحته ظاهريا. فغالبية الإسرائيليين تكن له التقدير والاحترام إزاء كون إسرائيل مازالت جزيرة من الاستقرار في شرق أوسط عاصف ومضطرب. ولكن الاستقرار الذي يقترحه نتنياهو في الحاضر سيكون له ثمن في المستقبل

جابوتنسكي.. أصل "الجدار الحديدي".

الذي يتحاشى (نتنياهو) النظر إليه بجرأة وشجاعة، مسلحا برؤية تنطوي على مخاطر ، لكنها تنطوي أيضا على فرص.

إن رؤيته المتشائمة لا تقترح سوى العجز والشلل، وهي خالية من الجرأة المسيانية، تلك التي ميزت هرتسل وبن غوريون.

* * *

في ضوء ما ذكر، فإن الزعامة الإسرائيلية الحالية والخطاب

**وتبين معطيات الاستطلاع الأخير من العام ٢٠١٤، أن ٨٧٪ من الإسرائيليين يعتقدون أن من المهم أو المهم جداً بالنسبة لهم إجراء عملية الختان في مراسم دينية، وأن ٨٠٪ يلتزمون بجزء على الأقل من السلوك والتعاليم الدينية في «يوم الغفران»، فيما يؤمن ٥٦٪ من الإسرائيليين إيمانا تاما بنزول التوراة في سيناء. وحول سؤال: أيهما أهم في تعريف دولة إسرائيل، المكون اليهودي أم الديمقراطي؟ أشارت إجابات المشتركين في الاستطلاع إلى أن الأكثرية تعطي الأولوية للمكون اليهودي.**

العام الإسرائيلي يفتقدان على حد سواء، للمسيانية العلمانية التي تنشد، بعيدا عن السياسة، قيم السمو واليوتوبيا. في المقابل– ولمزيد من الدقة يستحسن القول: عوضا عن ذلك– فقد تعاظمت في إسرائيل خلال العقود الأخيرة، الرابطة باليهودية. وليس المقصود هنا عودة إلى اليهودية الأرثوذكسية أو إلى لون محدد آخر من اليهودية، وإنما المقصود في شكل رئيسي البحث عن الجذور، وعن شحنة قيمية تبرر الوجود الإسرائيلي هنا. وتشير أبحاث جرت منذ تسعينيات القرن الماضي في شأن أهمية الهوية اليهودية، إلى أن غالبية الجمهور، علمانيين وتقليديين ومتدينين، غير مستعدة للتخلي أو الابتعاد عن التقاليد القديمة. وفي ضوء معطيات استطلاعات أجراها «المعهد الإسرائيلي للديمقراطية» و«معهد غوتمان» منذ العام ١٩٩٤ وحتى العام ٢٠١٤، فقد توصل الباحثون إلى استنتاج بأنه لا أساس للخطاب الذي يقسم المجتمع الإسرائيلي إلى متدينين وعلمانيين، وأن هناك امتدادا من المتمسكين بالمحافظة على الفروض الدينية وحتى أولئك الذين لا يحافظون نهائيا على هذه الفروض، دون وجود فصل ثنائي.

وتبين معطيات الاستطلاع الأخير من العام ٢٠١٤، أن ٨٧٪ من الإسرائيليين يعتقدون أن من المهم أو المهم جداً بالنسبة لهم إجراء عملية الختان في مراسم دينية، وأن ٨٠٪ يلتزمون بجزء على الأقل من السلوك والتعاليم الدينية في «يوم الغفران»، فيما يؤمن ٥٦٪ من الإسرائيليين إيمانا تاما بنزول التوراة في سيناء. وحول سؤال: أيهما أهم في تعريف دولة إسرائيل، المكون اليهودي أم الديمقراطي؟ أشارت إجابات المشتركين في الاستطلاع إلى أن الأكثرية تعطي الأولوية للمكون اليهودي. ووفقا للاستنتاج الذي تشف عنه الاستطلاعات المذكورة، فإن الأكثرية الساحقة من الإسرائيليين ترغب في أن تكون لإسرائيل صبغة يهودية، على الرغم من عدم وجود توافق بينهم فيما يتعلق بسمات هذه الصبغة.

إلى ذلك، تشير أبحاث جديدة، ومن ضمنها البحث الذي أجراه يعقوب يدغار، إلى أن المجموعة الراجحة في إسرائيل في كل ما يتعلق بالموقف من الدين، ليست العلمانيين أو المتدينين، وإنما مجموعة «التقليديين»، أي اليهود الذين لا يتمسكون بتطبيق الفروض الدينية بأكملها أو بحذافيرها، لكنهم يحافظون على عادات وفروض معينة، انطلاقا من إرادة مستقلة في المحافظة على الرابطة بالتقاليد القديمة. من جهة أخرى، لم يجر تقدير حجم مجموعة «التقليديين» كما يجب، وذلك في ضوء التقسيم السائد في البحث السوسيولوجي، وفي وسائل الإعلام، للمجتمع الإسرائيلي (اليهودي) بين «حرديم» و «متدينين» و «علمانيين»، وهذه المجموعة الأخيرة لا توجد لها في الظاهر، بحكم تعريفهم كعلمانيين، أي رابطة بالدين. ووفقا للباحث يعقوب يدغار، فقد اتسم التعاطي مع «التقليديين»، الذين اعتبروا مجموعة شاذة، بالاستخفاف بعض الشيء، نظرا لأنهم غير متدينين بصورة كافية، وغير متنورين بدرجة كافية كي يعتبروا علمانيين.

إلى ذلك: وفقا لعالم الاجتماع زيغمونت باومان، فإن التوجه المتجدد لقيم التقاليد، ليس ظاهرة تتعلق فقط بالسياق اليهودي، وإنما تشكل أحد إفرازات عصر مابعد الحداثة، الذي يتسم حسب قوله بـ «الحرية الفردية» في تعريف الهوية الشخصية (الخاصة) والتي تتغير بناء على الرغبة الذاتية للإنسان، بمعزل عن سياقها الاجتماعي. على هذه الأرضية، وفي البحث عن بناء هوية يهودية، يفضل اليهود العلمانيون في العصر الحالي تبني نموذج «تقليدي» في تعاطيهم مع الدين، على غرار التعاطي

مناحيم بيغن: توثيق الصلة بين الدين والقومية والدولة.

الأصلي ليهود الدول الإسلامية تجاه الدين اليهودي، وهو نموذج ديني يتسم بالخروج عن التقسيمة الثنائية المعروفة بين علمانيين ومتدينين وذلك بما يتيح لهم الدمج بين نمط حياة علماني وبين المحافظة على معتقدات أساسية، يعتبرونها مهمة من ناحية تعريفهم كيهود.

وكانت عودة الدين والبعد اليهودي إلى الصهيونية قد بدأت تدريجياً منذ خمسينيات القرن الماضي، حين أخذت الرسمية التي ميزت توجه بن غوريون، تخلي مكانها، في أعقاب فشلها في استبدال منظومة القيم التقليدية، لصالح تفسير جديد للقيم الدينية، والتي أعيد تفسير جزء منها وسط علمنة مصطلحات ومفاهيم مقدسة وشحنها بمضمون قومي، وقسم آخر وسط إبقاء القصة التقليدية كما كانت.

وقد اكتسبت هذه العملية وزناً وزخماً في أعقاب قدوم المهاجرين من البلدان الإسلامية، والذين تمسكوا برموز الدين القديمة كتعبير قومي وديني على حدّ سواء، ذلك لأنهم لم يتربوا على أفكار الطلائعية والاشتراكية الصهيونية، بل فهموا الفكرة الصهيونية كحقبة عصرية في العقيدة الدينية التقليدية. وقد اضطر بن غوريون ذاته إلى الاعتراف بذلك في فترة الخمسينيات.

فخلافاً لموقفه في فترة «الييشوف» والسنوات الأولى لقيام الدولة، أيد بن غوريون (في النصف الثاني من عقد الخمسينيات) تطبيق خطة تدريسية لتعزيز الوعي اليهودي في جهاز التعليم، وكل من يعرف جهاز التعليم الإسرائيلي في السنوات الأخيرة يدرك جيداً أن البعد اليهودي يحتل حالياً حيزاً أكبر بكثير من التعليم والتربية على الرواية الصهيونية الكلاسيكية. وبطبيعة الحال لا بد أن تؤخذ في الحسبان، في سياق هذه الظاهرة التي حدثت بين الخمسينيات وبين الوقت الحاضر، نتائج حرب «الأيام الستة» في العام ١٩٦٧، كعامل مهم في حفز عملية العودة إلى الدين وتسريعها ، ذلك لأن احتلال المناطق التي اعتبرت جزءاً من أرض إسرائيل التوراتية، أثار لدى قطاعات معينة من الجمهور اليهودي، عاطفة ومشاعر دينية متجددة.

عموماً من الصعب حالياً التشكيك في الادعاء القائل إن التطلع الأصلي للأب المؤسس لإسرائيل، بن غوريون، نحو مد خط متواصل بين «البالماح» و «التاناخ»- أي من العهد التوراتي القديم وحتى العهد السياسي الحديث- واستبعاد ودحر اليهودية التقليدية وفقما تطورت وازدهرت في الشتات، بغية إقامة أمة إسرائيلية متجددة، قد مني بالفشل.

**بدأت الرابطة بالدين واليهودية تجد صدى وتعبيرا لها في وسائل الاعلام الإسرائيلية خلال العقد الأخير، ولا سيما فيما يتعلق بالقلق إزاء ازدياد العناصر المتدينة في صفوف الجيش والمؤسسة الأمنية. وخلافا للعقود الأولى لقيام الدولة، والتي أشغل فيها أعضاء حركة العمل والكيبوتسات معظم وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي والمراكز المهمة في الأجهزة الأمنية، فقد أخذت العناصر المتدينة تحتل مكانهم بصورة متزايدة في السنوات الأخيرة، ولعل من الجدير بالإشارة في هذا السياق، أن ثلاثة من بين أربعة تولوا رئاسة جهاز الأمن العام (مخابرات "الشاباك") كانوا من معتمري القبعات الدينية.**

من ناحية عملية يمكن القول إن تبدلاً في القيم قد حصل بمعان كثيرة: فقد حلت العودة المتجددة إلى اليهودية في القرن الحادي والعشرين مكان الرابطة الصهيونية بالمسيانية في مطلع القرن العشرين.

* * *

بالإضافة إلى الأسباب والعوامل التي جرت الإشارة إليها آنفا ، فقد شكل حزب الليكود، عقب الانقلاب السياسي في العام ١٩٧٧، وصعوده إلى سدة الحكم، عاملاً مهماً ومؤثرا في إضفاء الطابع اليهودي على إسرائيل. ومن منظور تاريخي، يمكن القول أن فكر **مناحيم بيغن** وتراثه، ساهما بشكل كبير وأكثر من أي شيء آخر قام بهـــ ومن ضمن ذلك إبرام معاهدة السلام مع مصر وقصف المفاعل النووي في العراق وحرب لبنان الأولى(١٩٨٢)ـــ في توطيد الصلة بين الدين والقومية و الدولة . وقد كان لذلك في عهده تجليات ومظاهر سياسية تطورت إلى ظواهر اجتماعية في الأعوام التالية لاعتزاله الحياه السياسية. ففي فترة حكمه (١٩٧٧ـــ١٩٨٣) انخرطت الأحزاب الحريدية للمرة الأولى في الائتلاف الحكومي بعد غيابها عنه منذ الخمسينيات؛ كذلك أوجد بيغن سابقة حين أسند حقيبة وزارة المعارف (التعليم) لحزب المتدينين ـــ الوطنيين (المفدال) ، وقد استمرت هذه الظاهرة طوال ثلاثة عقود على التوالي تقريباً، لتصوغ وجهة نظر أجيال عدة. إلى ذلك فقد دشن بيغن نمط سلوك جديد، إذ كان أول رئيس حكومة يذهب، بعد انتخابه، للصلاة في «حائط المبكى»، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أي رئيس حكومة على خرق هذه العادة. كذلك فقد تعمقت في عهده الشراكة بين المتدينين والعلمانيين، كما جرى مثلاً في اطار الحركة الدينية – العلمانية «**هتحيا**»، على أرضية وحدة الآراء والمواقف فيما يتعلق بـ «أرض إسرائيل الكاملة». ولم يؤثر بيغن على العلاقات بين الدين والقومية والدولة وحسب ، فقد نجح أيضاً في اكتساب نفوذ سياسي كبير بحكم ميوله وتشخيصه كرجل متمسك بالتقاليد ، ومما يشكل دليلاً على ذلك الانحسار الذي طرأ على قوة حزب «المفدال» الذي مثل المعسكر الصهيوني الديني، طوال فترة وجود بيغن في السلطة .

فقد هبط حزب «المفدال» ، الذي حصل على دزينة مقاعد في الانتخابات للكنيست التاسع (١٩٧٧)، إلى ستة مقاعد في الانتخابات للكنيست العاشر (١٩٨١)، ثم إلى أربعة مقاعد فقط في الانتخابات للكنيست الحادي عشر (١٩٨٤). وقد حدث هذا التراجع نظرا لأن بيغن، ورغم تزعمه لحزب علماني، مثل في توجهاته أيضاً الجمهور التقليدي والديني، وبذلك قلص من **أهمية وجود حزب «المفدال»** ويشار في هذا السياق إلى أن عددا من الناخبين الذين صوتوا لحزب «الليكود» في عهد بيغن، أتوا من صفوف الجمهور الشرقي، وذلك لأنه مثل بالنسبة لهم ذات التوجه المعتدل تجاه التقاليد دون التزام راديكالي صارم بالفروض والتعاليم الدينية، وهي ظاهرة ميزت الاعتدال الديني ليهود البلدان الإسلامية، ومن ضمن ذلك تأثرهم بالمحيط الإسلامي الذي لم تجر فيه، حتى في العصر الحديث، تقسيمة ثنائية جلية إلى «علمانيين» و«علمانية»، بالمعنى الغربي للكلمة (يقول برنارد لويس إن التشكيك في وجود الله وإعطاء الشرعية للإلحاد كانا غريبين على المجتمع الإسلامي حتى في أوج عمليات العصرنة والعلمنة، ولذلك نجد أنه حتى الذين اتبعوا نمط حياة علمانيا لم يرفضوا كليا التقاليد والتفكير الدينيين،

المتدينون في الجيش الإسرائيلي: حضور متزايد.

ولم يتنكروا للمؤسسات الدينية. ونظرا للعلاقات المتبادلة التي نشأت بين اليهود والمسلمين طوال قرون، فقد ظهر تشابه بين الذين وصفوا باللغة الدارجة على أنهم «مسلمون علمانيون» وبين أولئك الذين وصفوا في اليهودية الشرقية على أنهم «يهود تقليديون»، بمعنى يهود لا تؤدي علمانيتهم إلى إبعادهم عن المعتقدات الدينية الأساسية ولا تجعلهم غرباء في نظر ممثلي الدين). من هنا تتضح أهمية دور مناحيم بيغن ومكانته في التاريخ الصهيوني، ومن ضمن ذلك كزعيم مثل موقفا تقليديا تطلع نحوه الجمهور الشرقي في إسرائيل، وهو ما وجد تعبيرا له أيضا في ظاهرة أخرى: إذ لم يكن من باب الصدفة قيام حزب شرقي – حريدي– وطني، مثل حزب «شاس»، مباشرة بعد اعتزال بيغن للحياة السياسية، والذي أدى إلى نشوء فراغ في هذا السياق. وقد حصلت حركة «شاس» على أربعة مقاعد في الانتخابات للكنيست الحادي عشر (١٩٨٤)، ثم أخذت قوتها تتعاظم أكثر فأكثر منذ ذلك الحين وحتى الآن. إلى ذلك فإن حقيقة اهتمام هذا الحزب (شاس) وتدخله منذ إقامته– رغم صبغته الحريدية –في سائر المواضيع المطروحة على الأجندة العامة للدولة، تشكل تعبيرا للدمج بين شؤون الدين والدولة ومواطنيها، والذي بدأ في عهد بيغن، وما زالت أصداؤه تتفاعل بقوة حتى الآن.

* * *

بدأت الرابطة بالدين واليهودية تجد صدى وتعبيرا لها في وسائل الاعلام الإسرائيلية خلال العقد الأخير، ولا سيما فيما يتعلق بالقلق إزاء ازدياد العناصر المتدينة في صفوف الجيش والمؤسسة الأمنية. وخلافا للعقود الأولى لقيام الدولة، والتي أشغل فيها أعضاء حركة العمل والكيبوتسات معظم وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي والمراكز المهمة في الأجهزة الأمنية، فقد أخذت العناصر المتدينة تحتل مكانهم بصورة متزايدة في السنوات الأخيرة، ولعل من الجدير بالإشارة في هذا السياق، أن ثلاثة من بين أربعة تولوا رئاسة جهاز الأمن العام (مخابرات "الشاباك") كانوا من معتمري القبعات الدينية، كذلك فإن مكتب رئيس الحكومة بات يتميز بكثرة الموظفين من معتمري مثل هذه القبعات، وهؤلاء في الغالب مهاجرون من الولايات المتحدة.

**من هنا فإن أحد الأسباب المركزية في ازدياد أعداد المتدينين في صفوف الجيش والمؤسسات الأمنية مرتبط إذن في أن بعض المجموعات المغبونة، أو التي كانت تقبع في هامش المجتمع من ناحية تأثيرها على مؤسساته النخبوية، كما عليه حال المتدينين- الوطنيين، أخذت تتغلغل في صفوف هذه المؤسسات تماما في الوقت الذي بدأت فيه هذه الأخيرة تفقد بريقها وجاذبيتها ومكانتها. ويفسر ذلك أيضا جانبا من إزديـاد وزن أبناء الجيلين الثاني والثالث لليهود الشرقيين في القيادة العسكرية.**

وقد بلغ السجال العام حول هذه الظاهرة ذروته أثناء العملية العسكرية الأخيرة (عملية "الجرف الصامد") في قطاع غزة، عندما، أصدر قائد لواء "غبعاتي" أمراً قتاليا دعا فيه إلى القتال باسم إله إسرائيل.

ويثير تغلغل المتدينين في المؤسسات الأمنية، ولا سيما في ظل التوتر القائم أصلا بين الدين والقومية، قلقا متزايداً لدى المعسكر الليبرالي في إسرائيل. غير أنه يمكن النظر للجزع من ازدياد العناصر المتدينة في صفوف المؤسسات الرسمية، من منظور مختلف يدل أيضا على الطريقة التي تفهم بها وجهة النظر العلمانية- اللبرالية الدين بصورة أتوماتيكية كتهديد، وأنه يتماهى مع التطرف القومي، وذلك خلافا لموقعه الأصلي بالنسبة إلى الصهيونية كعامل اعتدال. فالتماثل بين ارتداء قبعة المتدينين ("كيباه") وبين الموقف المؤيد لـ "أرض إسرائيل الكبرى" لا يعتبر أمراً حتميا من ناحية وجهة النظر السياسية. ويشار في هذا السياق إلى أن حركة "همزراحي" كانت قد أيدت "خطة أوغندا" التي أثارت عاصفة جدل وخلافات في المؤتمر- الكونغرس- الصهيوني الذي عقد في العام ١٩٠٣ ( أقترح بموجب هذه الخطة البحث عن مكان في إفريقيا لإقامة وطن قومي لليهود)، مع أن حزب المتدينين- الوطنيين "المفدال" (الذي يشكل امتدادا للحركة المذكورة) اعتبر حتى أوائل السبعينيات، واحدا من الأحزاب (الصهيونية) المعتدلة من ناحية سياسية. ولا يتسع المجال هنا للخوض في أسباب التغيير الذي طرأ منذ ذلك الوقت على موقف تيار المتدينين- الوطنيين، وعموما فإن هذا التغيير يرتبط بتأثير احتلال "المناطق" في حرب العام ١٩٦٧. غير أنه من الجدير التأكيد هنا على أن المتدينين- الوطنيين، الذين باتوا يتبوأون مراكز قيادية في الجيش والمؤسسة الأمنية، لم يسيطروا بالقوة والحيلة على مؤسسات رسمية، وإنما يملأون فراغا أخذت تتركه بشكل متزايد النخبة العلمانية. وفي الحقيقة فإن الجدل المتواصل بين اليمين واليسار فيما يتعلق بمسألة "المناطق" يطمس الوضع القائم في إسرائيل، والتي لم يعد يوجد فيها حقا ذلك الحماس أو الاندفاع الصهيوني العلماني الماضوي.

صحيح أن الإسرائيليين ما زالوا يكترثون ويميلون للإكثار من التحدث حول هذا الموضوع، وأن لديهم ميولاً وتفضيلات سياسية، يعبرون عنها في الإقبال على التصويت في الانتخابات، ولكن ليس أكثر من ذلك (فالتجنيد للجيش إجباري، وحتى في هذا الشأن لا شك في أن الهالة التي كانت تحيط بجنود الوحدات القتالية انحسرت وتراجعت كثيرا)، وفي أحسن الأحوال نجد أن العلمانيين الإسرائيليين ما زالوا يخرجون للتظاهر من حين إلى آخر . لكن الصهيونية بالمعنى الرسمي الكلاسيكي، أي التجند للوحدات القتالية والاستيطان في المناطق الحدودية والقيام بنشاطات عامة ( غير سياسية)، باتت تولد دافعية متناقضة ومتراجعة أكثر فأكثر في صفوف النخبة العلمانية.

من هنا فإن أحد الأسباب المركزية في ازدياد أعداد المتدينين في صفوف الجيش والمؤسسات الأمنية مرتبط إذن في أن بعض المجموعات المغبونة، أو التي كانت تقبع في هامش المجتمع من ناحية تأثيرها على مؤسساته النخبوية، كما عليه حال المتدينين- الوطنيين، أخذت تتغلغل في صفوف هذه المؤسسات تماما في الوقت الذي بدأت فيه هذه الأخيرة تفقد بريقها وجاذبيتها ومكانتها. ويفسر ذلك أيضا جانبا من إزدياد وزن أبناء الجيلين الثاني والثالث لليهود الشرقيين في القيادة العسكرية (ثمة عملية

مشابهة، ما زالت في بدايتها، تسم انخراط المتدينين والشرقيين في وسائل الاعلام والصحافة وذلك في موازاة انحسار مكان هذه الأخيرة أيضا).

وإذا كان يمكن، من ناحية سوسيولوجية، الإشارة إلى أن متدينين كثيرين باتوا يشغلون بالفعل مراكز مهمة وقيادية في المؤسسات والأجهزة الأمنية، فإنه يمكن من منظور تاريخي تشخيص هذه الظاهرة من عدة زوايا. من زاوية النظر الصهيونية، ترى النظرة المتفائلة بأنه ستكون هناك في كل فترة مجموعة إسرائيلية مستعدة للنهوض بالعبء، ويمكن للإسرائيلي الذي يتعمق في الفكرة الصهيونية أن يفهم بأن تحمس المتدينين وإقبالهم المتزايد على الانخراط في المؤسسات الرسمية، والتي يتخلى عنها العلمانيون، يشير إلى أن غرشوم شالوم (باحث متخصص في الصوفية اليهودية) كان محقا حين حذر من أن الصهيونية تمثل بالأساس شرارة دينية مصيرها أن تشتعل.

ويمكن للإسرائيلي الساخر القول إنه إذا كان الصهيونيون العلمانيون قد مثلوا فيما مضى، في نظر المتدينين، حمار المسيح، فإن المتدينين هم الذين يقومون حاليا بالمهمة الأمنية الشاقة لحساب العلمانيين.

* * *

لاحظنا مما تقدم أن الرابطة بين الإسرائيلية واليهودية قد تعززت وتوطدت، غير أن الإجابة على السؤال حول ما إذا كانت إسرائيل تحولت إلى دولة متدينة أكثر، لجهة التطرف الأرثوذكسي والالتزام بالفروض، والتعاليم الدينية، تبدو إجابة شائكة ومركبة. من ناحية عملية، فقد انحسرت منذ مطلع الألفية الثانية مكانة ما يوصف بـ "سياسة التسويات" في العلاقات بين الدين والدولة- أي ميل الزعامة العلمانية للحلول الوسط فيما يتعلق بالمطالب الدينية، واستعداد المتدينين لعدم شد الحبل - لجهة تبني موقف أكثر علمانية من طرف المؤسسة السياسية.

وقد تحدث جئ بن فورات في كتابه الجديد "Between State and Synagogue" عن أن نفوذ الدين المأسس في إسرائيل أخذ ينحسر ويتراجع، وذلك خلافا لما تدعيه كثرة من العلمانيين. وعلى سبيل المثال فقد أقصي المتدينون المتزمتون (الحرديم) من الحكومة الحالية (حكومة نتنياهو السابقة)، بل وجرى سن قانون لتجنيدهم في الجيش؛ كذلك بات إسرائيليون كثيرون يتزوجون وفق مراسم زواج بديلة (غير دينية). ولا يعبر التغيير عن نفسه فقط في العلاقة بين الدين والدولة، وإنما أيضا في الكيفية التي يتخذ فيها الدين أشكالا أكثر مرونة واعتدالا في الوسطين الحريدي والديني- القومي. وقد انتشرت في صفوف المجتمع الحريدي منذ التسعينيات ظاهرة عبرت عن نفسها في مزيد من الانفتاح على الحيز العام العلماني، وميول قومية غير انعزالية، وهو ما وجد أيضا تعبيرا جليا، على سبيل المثال، في الكتيبة الحريدية التي أقيمت في الجيش الإسرائيلي في العام ٢٠٠٢، والتي إنضم إلى صفوفها عدد لا يستهان به من الشبان الحريديم المتسربين من المدارس والمعاهد الدينية.

كذلك فإن حركة "شاس" التي تعتبر حركة حريدية من ناحية زعامتها، تشكل عمليا، إطارا ينضوي تحته عدد كبير ومتزايد من التقليديين و"التائبين" الذين لم يتخلوا عن العالم العلماني من نواحي العمل والتشغيل، لكنهم تبنوا نمط حياة دينيا، وبذلك وجدوا طريقا أرثوذكسيا معتدلا مقارنة مع الحريدية الاشكنازية. وفي صفوف المعسكر القومي- الديني (الصهيونية الدينية) انتشرت ظاهرة تسمى "متدينون لايت" (وغالبية هؤلاء من الشبان وصغار السن الذين لا يتمسكون كثيرا بالفروض والوصايا الدينية وإنما يتمسكون بالأيديولوجيا اليمينية، دون أن يخلعوا القبعة الدينية "الكيباه"، لكنهم لا يرون فيها حاجزاً يحول بينهم وبين الانفتاح على الجمهور العلماني والثقافة العلمانية).

وهكذا فقد تعاظمت في إسرائيل الرابطة باليهودية، ولكن ليس بالمعنى الأرثوذكسي، أو عن طريق توطيد العلاقة بين الدين والدولة. ويجد مبنى هذه العلاقة، التي شيدت أسسها في خمسينيات القرن الماضي، ثم أخذت تتعزز أكثر منذ الانقلاب السلطوي الذي قاده مناحيم بيغن في أواخر السبعينيات، تجليا له في ميل نحو البحث المتجدد عن اليهودية، إنطلاقا من التطلع نحو قيم تقليدية وفق تفسير عصري وروحي أكثر. وعليه يمكن القول إنه كلما ازداد ضعف وإنحسار الدين المأسس في إسرائيل، كلما ازداد الانشغال باليهودية بتلاوينها وأطيافها المختلفة، وهذا الانشغال مستقل في جوهره، ويتسم بالتنوع والانفتاح. وسواء أكان الحديث يدور على انشغال فولكلوري شعبي، أم اهتمام فكري وثقافي، فمما لا شك فيه أن اليهودية أخذت تزدهر في إسرائيل بشكل منقطع النظير تقريبا، وهي ظاهرة جلية وملموسة في الدولة بأكملها، ولها جذور عميقة حتى في مدينة تل أبيب التي تعتبر معقلا للعلمانية.

**ويملأ حزب "البيت اليهودي" الفراغ الذي تركه مناحيم بيغن في زعامة الليكود، إذ إن ورثته في زعامة اليمين مجردون تماما من أي إلهام يهودي- تقليدي. فجميع رؤساء الحكومات الذين أتوا من الصفوف القيادية لحزب الليكود بعد بيغن- اسحق شامير، بنيامين نتنياهو، أريئيل شارون وحتى أولمرت الذي انتمى في الأصل لحزب الليكود- هم يهود علمانيون، بل وملحدون، تشدهم مسألة اليهود أكثر مما تشدهم مسألة اليهودية.**

ويشكل ذلك أيضا السياق الرحب الذي يمكن من خلاله النظر إلى نجاح حزب "البيت اليهودي"، الذي حصل على دزينة مقاعد في الانتخابات السابقة للكنيست التاسع عشر (٢٠١٣)، والذي من المتوقع أن تزداد قوته في الانتخابات الوشيكة (المقرر إجراؤها في ١٧ آذار ٢٠١٥). وكان نفتالي بينيت، الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة وخدم في فرقة النخبة التابعة لهيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي (يعتمر قبعة دينية "كيباه" صغيرة كتعبير عن تعدديته الدينية تجاه العلمانيين)، قد أسس حزب "البيت اليهودي" كبديل للحزب القومي- الديني (المفدال) الذي أعتبر حزبا غير ذي صلة يدار من قبل قادة إشكنازيين ولى زمنهم. ودعا بينيت الناخبين العلمانيين أيضاً إلى تأييد حزبه الجديد والتصويت له في الانتخابات بوصفه حزبا يدمج في صفوفه بين المتدينين والعلمانيين والتقليديين. واعتبرت وسائل الإعلام من جهتها أن نجاح حزب "البيت اليهودي" يشكل بالأساس تعبيرا عن تنامي التطرف فيما يتعلق بـ "أرض إسرائيل الكبرى"، والتي تمثل الراية الرئيسة للحزب. ولكن من ناحية عملية ينبغي فهم نجاح الحزب كتعبير عن رغبة إسرائيليين كثيرين في وجود حزب يميني يحافظ على قيم تقليدية.

ويملأ حزب "البيت اليهودي" الفراغ الذي تركه مناحيم بيغن في زعامة الليكود، إذ إن ورثته في زعامة اليمين مجردون تماما من أي إلهام يهودي- تقليدي. فجميع رؤساء الحكومات الذين أتوا من الصفوف القيادية لحزب الليكود بعد بيغن- اسحق شامير، بنيامين نتنياهو، أريئيل شارون وحتى أولمرت الذي انتمى في الأصل لحزب الليكود- هم يهود علمانيون، بل وملحدون، تشدهم مسألة اليهود أكثر مما تشدهم مسألة اليهودية. ويمكن كشف رابطتهم بالدين فقط عند تبني نموذج ماكس كادوشين حول "المفاهيم القيمية"، والذي يقوم على الفرضية القائلة بأن الوقوف على، أو فهم، الخصوصية الثقافية لمجموعة معينة- وفي هذه الحالة زعماء الحركة- يقتضي إضاءة مفاهيم أساس لا تتجلى دائما بشكل صريح ومعلن، وإنما بواسطة مصطلحات لغوية، رمزية، ونصوص ونماذج فكرية. وفي الواقع، عند الاستعانة بنموذج "المفاهيم القيمية" بغية تفحص الصلة التصحيحية بالدين بعد عهد بيغن، يمكن القول إن الرؤية الأمنية- السياسية المتصلبة (التي تشكل الموضوع الأكثر استحواذاً في أفعال زعماء الليكود وخطاباتهم) تمثل صدى لنموذج فكري بصيغة "شعب يسكن وحده"، وهو مفهوم أساس في الثقافة اليهودية التقليدية. بمعنى أنهم، انطلاقا من فهمهم بأن إسرائيل منهمكة في صراع وجودي دائم، وحيث أن جل أحاديثهم وأقوالهم تتعلق بشعور انعدام الأمن الذي ترزح إسرائيل تحته في الحيز الشرق أوسطي، إنما ينتجون- بوعي أو دون وعي- أنماط تفكير قيادية تعكس تواصلا وامتداداً قيميا بينهم وبين سرد كتب التقاليد اليهودية التي اتسمت ببنية منهاجية في رواية قصص الاضطهاد والخلاص.

ولكن فيما عدا ذلك، لا توجد لزعماء اليمين أي صلة بالقيم اليهودية غير المرتبطة بالصراع الأمني أو الصراع على أرض إسرائيل. في المقابل فإن زعماء اليسار أيضا غير مرتبطين بالتراث اليهودي، وبهذا المعنى فقد انفصل اليسار (الصهيوني) منذ عهد بن غوريون، عن جذوره. صحيح أن أ. د. غوردون وبيرل كتسينلسون لم يكونا متدينين بالمعنى الأرثوذكسي، إلا

**غير أن اختفاء المسيانية العلمانية لدى اليسار، ولأنه لم يظهر بعد عهد بيغن زعيم يميني آخر يربط بين التقاليد والقومية- ما عدا في صدى تكرار السرد الحتمي للاضطهاد والخلاص- نجد أن الجمهور الإسرائيلي، الذي تبدي غالبيته استعداداً للقبول بتسويات مع التمسك بالمحافظة على يهودية إسرائيل، يقع في شباك بينيت، الذي يقدم مسوغا قيميا للحماس والاندفاع القوميين، تلك القيم التي لم تعد الزعامة الإسرائيلية، المنتقدة للإلهام، قادرة على عرضها أو اقتراحها، وكل ما تبقى منها ولديها، عوضا عن القيم المتنوعة، هو النقاش الذي لا يتوقف حول أرض إسرائيل.**

أنهما تخبطا كثيرا فيما يتعلق بهويتهما اليهودية. كذلك عارض دافيد بن غوريون نمط الحياة التقليدي، لكنه عرق طوال حياته في التاناخ (كتاب "العهد القديم") وقصصه وأسفاره.

ويتطلع اليسار الصهيوني إلى إصلاح المجتمع وفق النموذج الأوروبي، ويسعى إلى السلام بغية العيش باستقرار وطمأنينة كما في أميركا الشمالية. والحلول التي يبحث عنها ليست "غير يهودية"، لكنها لا تعرض على الجمهور استنادا على مبررات مستمدة من المصادر والتقاليد (اليهودية) ولا تبدو نابعة من القلق إزاء استمرار الوجود اليهودي، وفي ذلك يكمن الجزء الذي يساور معظم الإسرائيليين، بوعي أو دون وعي. هنا أيضا تكمن بالذات أفضلية نفتالي بينيت، الذي يشكل في السنوات الأخيرة، الظاهرة السياسية– الاجتماعية الأكثر إثارة وجاذبية في إسرائيل، والتي تمور بتوق وحنين نحو الصلة باليهودية.

غير أن اختفاء المسيانية العلمانية لدى اليسار، ولأنه لم يظهر بعد عهد بيغن زعيم يميني آخر يربط بين التقاليد والقومية– ما عدا في صدى تكرار السرد الحتمي للاضطهاد والخلاص– نجد أن الجمهور الإسرائيلي، الذي تبدي غالبيته استعداداً للقبول بتسويات مع التمسك بالمحافظة على يهودية إسرائيل، يقع في شباك بينيت، الذي يقدم مسوغا قيميا للحماس والاندفا ع القوميين، تلك القيم التي لم تعد الزعامة الإسرائيلية، المنتقدة للإلهام، قادرة على عرضها أو اقتراحها، وكل ما تبقى منها ولديها، عوضا عن القيم المتنوعة، هو النقاش الذي لا يتوقف حول أرض إسرائيل.

[مترجم عن العبرية. ترجمة سعيد عيّاش]

## المراجع


- أفينيري ، شلومو: "الفكرة الصهيونية على اختلاف ألوانها" تل ابيب ١٩٨٠.
- اوحانا، ديفيد: "المسيانية والرسمية: بن غوريون والمثقفين، بين الرؤيا السياسية والثيولوجيا السياسية" كريات سديه بوكر، ١٩٩٩.
- باومن، زيغمونت: "عصرية سائلة مرنة" القدس: ماغنس ٢٠٠٧.
- دشان، شلومو: "تدين الشرقيين: الجمهور، الحاخامون والعقيدة" ألفايم، ٩، تل ابيب ١٩٩٤.
- يدغار، يعقوب : "التقليديون في إسرائيل – عصرية بدون علمنة" القدس: معهد شالوم هرتمان، إصدار كيتر وبارإيلان ٢٠١٠.
- جابوتنسكي، زئيف: "قومية ليبرالية" أ ، تل أبيب: جابوتنسكي ٢٠١٣.
- يهود إسرائيليون: صورة، معتقدات، والمحافظة على التقاليد والقيم لدى اليهود في إسرائيل" القدس: المعهد الإسرائيلي للديمقراطية ومعهد غوتمان، ٢٠٠٩–٢٠١٤ .
- لويس، برنارد: "اليهود في العالم الاسلامي" القدس: شزار، ١٩٩٦.
- نتنياهو، بنيامين:"مكان تحت الشمس" تل أبيب: يديعوت أحرونوت، ١٩٩٥.
- شيلون، آفي : "بيغن: ١٩١٣ – ١٩٩٢" تل أبيب: عام عوفيد ٢٠١٠.
- Ben-Porat, Guy. **Between State and Synagogue: The Secularization of Modern Israel**, Cambridge University Press, 2013
- Shindler, Colin. **The Triumph of Military Zionism. Nationalism and the Origins of the** Israeli Right. London: I.B. Tauris, 2010.